أخلاق الشيخ سيدي الهواري من خلال منظوماته

د. أحمد بحري

جامعة وهران1 أحمد بن بلة

مقدمة:

اشتهر الشيخ محمد بن عمر الهواري الشهير بسيدي الهواري بجملة من الخصال الحميدة كالصدق والأمانة وحب العلم والعلماء والصبر على المكاره وغيرها مما جعله يتربع على رئاسة الولاية والإصلاح في المغرب الإسلامي عامة والمغرب الأوسط بشكل خاص دون منازع.

وقد عرفه بها جملة من كتب عنه من الرواة والعلماء كما تحدث بها عامة من عرفه ومن لم يعرفه من العامة وزادوا عليها احتراما وتقديسا بالقدر الذي جاوز المعتاد من الأخلاق، وفي هذه الورقة محاولة لرصد أهم هذه الخصال التي وردت على لسان الشيخ في منظوماته التي استشهد بها محمد بن أبي الفضل بن سعيد بن صعد الأنصاري التلمساني في ترجمته للشيخ الهواري في كتابه " روضة النسرين في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين " وذلك للتعريف بما صح من أخلاقه فأكسبه هذه المكانة المتميزة بين صلحاء زمانه.

لم يبق لنا من منظومات الشيخ غير كتابه السهو الذي ما يزال مخطوطا أما غيره فلا نعرفه إلا من خلال ما نقله عنه الرواة وأحسن من كتب عنه ابن صعد في كتابه روضة النسرين في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين والذي أفرد للشيخ الهواري ترجمة مستفيضة ذكر خلالها جملة من الأبيات المنتقاة من منظوماته والتي سنحاول استعمالها للاستدلال على بعض خصال الشيخ وأخلاقه التي ذكرها لنا جملة من كتبوا حوله.

تعريف الشيخ الهواري:

الشيخ المغراوي الهواري سيدي محمد بن اعمر بن عثمان بن عياشة بن عكاشة بن سيد الناس بن أحمد بن محمد بن علي ابن الأمير امغار بن أبي عيسى بن محمد بن موسى بن سليمان بن

موسى بن محمد ابن موسى بن عيسى بن محمد بن موسى بن سليمان بن موسى بن محمد ابن الحسن السبط ابن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه وكرَّم الله وجهَ) وابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم اهـ من (جواهر الأسرار في معرفة آل النبي المختار). «ولما نشأ في مغراوة وتربى في هوارة قيل له تارة المغراوي وأخرى الهواري وهي الأكثر".[1]

ولد الشيخ بهوارة في أحواز كلميتو شرق مدينة مستغانم عام 751هـ 1350م التي انتقل إليها في سن العاشرة بعد حفظه للقرآن الكريم، وبها تعرف على شيخ عابد فلازمه وتعلم منه طريقته الصوفية، ثم تنقل في البلاد المختلفة وركب البحر فزار بعض جزر المتوسط، واتجه إلى بجاية لإتمام تعلمه، فأخذ على خيرة شيوخها وبها ألف كتابه المعروف بالسهو والتنبيه في أحكام الطهارة والصلاة.

ومن بجاية عاد إلى وهران ثم ارتحل إلى مدينة فاس وبها تصدى للتعليم والتدريس بعدما ظهرت عليه أمارات العلم والتف حوله الطلاب، ثم اتجه شرقا إلى مصر عبر تونس وليبيا، وبالأزهر تتلمذ على من لقي من العلماء ثم انتقل إلى البقاع المقدسة للحج فزار مكة والمدينة وبيت المقدس ومنها ارتحل إلى الشام فزار المسجد الأموي ثم عاد للاستقرار بمدينة وهران.[2]

خلق الصدق:

اشتهر الشيخ الهواري بالصدق وكراهية الكذب والكذابين بل كان يعتبر الكذب من العار الذي يشوه خصال الرجال وينهى الناس عن الوقوع فيه ومن ذلك قوله في منظومه المعروف بالتسهيل:

كنت صبي نقرا وأنا يا صبي ننهى الناس على العار ولا أو رات لي شبها

إذا ريت من يكذب بالعمل أو من يسها نتركو بالكل إن الكذب هو شوها[3]

ومما جاء في نيل الابتهاج للتنبكتي ما يلي: " ...ثم استقر أخيرًا بوهران مثابرًا على العلم والعمل والصدق في الأحوال..."[4]

حسن التوكل على الله والحرص على اتباع السنن:

لم يكن الشيخ يعتمد في أسفاره ورحلاته على غير عصاه أو عكازه كما يسميه ولم يتخذ أي من آلات الحديد التي قد يعتمدها غيره في زمانه رغم بقائه في القفار والفيافي فترات زمنية طويلة لا رفيق له فيها غير هوام الغابات ووحوشها من دون خوف منها، يفعل ذلك متوكلا على حفظ الله تعالى وحسن عونه واتباعا لسنة نبيه وسنة الأنبياء من قبله في الاعتماد على العصا والاتكاء عليها، وقد جاء في التنبيه قوله:

فكم رأيت من بلاد والناس رأيتهم أردود وقد كنت متوكل على الواحد المعبود

ونسكن في الخلا وحدي في الغار الذي نوجد وحدي وسادتي ويدي وبعض من الأعواد[5]

الاعتراف بالجميل وشكر أهل المعروف:

لقد أثنى الشيخ على أهل بجاية ثناء حسنا على حسن ضيافتهم له حين مروره بها والإقامة فيها كما أثنى على خصال أهلها وحبهم للعلم والعلماء وصدق أقوالهم وأفعالهم وورعهم الظاهر ما ميزهم به عن غيرهم من أهل البلاد التي مر بها في رحلاته فقال فيهم في نظمه التسهيل ما يلي:

لو وصفت لك ما ريت في بجاية وهي هيا بلد الورع والعلم وترابيا حقيقيا[6]

روى عنه التنبكتي أنه " ...كان يثني على أهل بجاية كثيرًا لمحبتهم الغرباء والفقراء ومحافظتهم في معاملاتهم على الحلال ..."[7]

زهده في متاع الدنيا والاكتفاء منها بالضرورات:

اشتهر الشيخ بزهده الكبير في متاع الدنيا والاكتفاء منها بما لا يزيد عن الحاجات الضرورية للحياة وذلك منذ بداياته وانقطاعه لطلب العلم إلى أن صار عالما مشهورا تسير إليه الركبان وتتدفق عليه العطايا مع كل قافلة قادمة إلى مدينة وهران فيسرع إلى تفريق ما جاءه منها على فقراء المدينة

ومحتاجيها، فقد جاء على لسانه واصفا حالة الفقر والجوع حين دخوله مدينة فاس طالبا للعلم ولقاء العلماء قوله:

دخلت فاس غريب وقد آويت للسعا وقد نشتهي جبزا أو من كسكسو شبعا[8]

وكما كان حاله مع الطعام كذلك كان الأمر مع اللباس ومع سائر مشتهيات الدنيا فقد كان يكتفي بما ستر ويصبر على حال الفقر راضيا شاكرا[9].

وقد أورد ابن صعد نقلا عن بعض منظوماته أنه دخل مصر في ثوب خلق من الصوف مقتديا في ذلك بمن تقدم من زهاد الصوفية.

وفي ذلك قال:

كنت بالحفا نمشي ولباسي أيضا سترا وخير الرزق ما يكفي أن الصبر للفقرا[10]

الحرص الشديد على حسن الاتباع:

يذكر ابن سحنون أن الشيخ الهواري لم يكن للنفس منه حظ منذ خروجه لطلب العلم صغير فقد كان زاهدا في الدنيا "... حفظ القرآن وهو ابن عشر سنين، وأتاه الله الحكم صبيا، وهداه إلى طريق الولاية وكان به حفيا، وأول ما فتح الله به عليه أنه خرج من وطنه بعد حفظه القرآن فدخل بلد كلميتو فوجد بها شيخا من أولياء الله تعالى فزاره وسأل منه أن يدعو له الله تعالى فدعى له أن يجعله من أهل الطريقة، فقبل الله دعاءه..."[11]

حرص الشيخ على حسن اختيار من يأخذ عنهم دينه من العلماء الراسخين ممن عرف دينهم وعلمهم وورعهم ويقينهم، ولم ينصبوا أنفسهم للفتوى طلبا للرياسة والظهور الدنيوي فقد يدفع هؤلاء حرصهم على طلب حطام الدنيا إلى الوقوع في تعدي حدود الله والتعدي على المحرمات من أجل عرض زائل ويقول فيهم:

من لا يعرف الله لا تعرف واحذر منو واتقي

مع شيخ عارف والعلم من أهل الدين يستقي[12]

الحكمة:

اشتهر الشيخ سيدي الهواري بالحكمة بل لعلها أهم ما ميزه بعد الورع والزهد، ولعل اكتفاؤه بالتصريح عن طريق المنظومات الشعرية باللغة الدارجة مما هدته إليه حكمته لأن هذا المنهج كان مناسبا للتأثير في معاصريه لكونه أسهل في الفهم بالنسبة لهم وأيسر في الحفظ والتداول بينهم من غيره من الشعر أو النثر بالفصحى، وقد أورد في التنبيه ما يوافق هذا المعنى بقوله:

ونعراف في البلاد حكيم وقال كلامي كله حكمة[13]

" ... قال الشيخ أبو عبد اللّه ابن الأزرق: ووقفت لبعض العصريين أن الشيخ الولي الشهير الهواري نزيل وهران لما ألف السهو الذي عمل عليهالتنبيه أخذه الفقيه أبو زيد عبد الرحمن المعروف بالمقلاشي فوزن فيه أشياء وأعرب فيه أشياء فأتي به الشيخ وقال له: يا سيدي إني أصلحت سهوك فقال له الشيخ: هذا السهو يقال له سهو المقلاش، وأما سهوي فهو أن الفقراء إنما ينظرون فيه إلى المعنى، ومن أين العربية والوزن لمحمد الهواري بل سهوي يبقى على ما هو عليه- اهـ ".[14] وزاد صاحب البستان على هذه الرواية أن المقلش " ... لم يزل يرتعش حتى مات من أجل اعتراضه على الشيخ ..."[15]

ولا يعقل أن يكون اعتراض الشيخ على تلميذه مكابرة أو إصرارا على الخطأ من عالم مثله، أو عجزا منه عن التأليف بالفصحى وهو الذي يحفظ ما يحفظ من المصنفات التي تجعله قادرا على ذلك كما أن قدرة تلامذته كالمقلش والتازي تجعلنا نجزم بأن اختياره للتأليف بالعامية الدارجة كان اختيارا حكيما مقصودا لتوسيع دائر الانتفاع بهذه المنظومات.

حب العلم والعلماء والحث عليه:

حث الشيخ عل طلب العلم واعتبره معينا على العلو في القدر والكبر في العمر كناية على اكتساب الفضل وتدبير شؤون الحياة على أحسن وجه والاقتراب من الله ومخافته فكلما زاد علم

الانسان زاد تعظيمه لربه واحتقاره لنفسه فإذا قبل الله من العبد جهده لطلب العلم كان جزاؤه الجنة وفي ذلك يقول:

العلم من يقرا فيكبر بيه مدا وإذا قبل منو الجنة له خلدا

ويقول كذلك:

العلم هو عندي كالإبر اطرز يطرز ومن يخاف الله بالتقوى أيضا يوعز[16]

وقد نوّه المزاري في تعريفه للشيخ بنجابته وتحمله أعباء السفر في طلب العلم ثم في تعليمه فقال: " ... فهو قطب الأولياء، ورايس الزهاد الأتقياء، صاحب الكرامة الظاهرة، والأحوال الباهرة كان كثير السياحة والنجابة والنجاحة، أخذ بفاس عن العبدوسي والقباب، وببجاية عن الشيخ أحمد بن إدريس والوغليسي...وبمصر عن العراف[17] وغيره، وجاور بالحرمين الشريفين وسافر للقدس فجال بالشام لنيل خيره ومكث بدمشق بالجامع الأموي ما شاء الله...ومكث آخر عمره بوهران بلد أسلافه بالتحرير، مثابرا فيها على العلم والعمل إلى أن اتفع به الخلق الكثير".[18]

سرعة الحفظ وقوة الذاكرة مع التواضع:

لقد كان اهتمام الشيخ بالعلم وتعظيمه لأهله منذ صغره إلى أن لقي ربه ولم يكن طلبه للعلم بغرض حب الظهور أو الرياسة فأنعم الله عليه وكافأه بسرعة الحفظ وعدم النسيان فكان أحفظ أهل زمانه وأذكاهم عقلا كما يصفه ابن صعد، وكما يذكر هو عن نفسه قائلا:

إذا يحفظ شيء يذكرو ولا ننساه ولا ننكرو[19]

ويذكر ابن صعد أيضا أنه "حفظ المدونة المسماة بالتهذيب للبراذعي وكان إكماله لحفظها سنة ست وسبعين وسبع مئة وهو ابن خمس وعشرين وكان يحفظ كتاب التلقين للقاضي عبد الوهاب وكتاب جامع الأمهات لابن الحاجب، ذاكرا شرح ابن عبد السلام قائما على فوائده"، وأنه كان من أئمة علم التوحيد، وكان من محفوظاته "...كتاب الإرشاد في علوم الاعتقاد تأليف إمام الحرمين أبي المعالي عبد المالك بن عبد الله الجويني..."

كما حفظ مختصر خليل ولما ظهر شرح جديد للمختصر في أواخر عمره اجتهد في الانتفاع بما فيه من فوائد وقال في ذلك:

وقد نشتهي نسخا من خليل فيه أبيان ونفرح بما ننقل ولا يكن نسيان[20]

ورغم هذه النعم التي خصه الله بها لم يغتر بنفسه بل كان شديد التواضع يستقل علمه ويطلب المزيد ويداوم على طلب العلم غير مكترث بما وصل إليه من علم وعمل " ومنظوماته مفصحة بذلك وأنه كان يحتقر علمه ولا يرضى بعلمه"

الاجتهاد في العبادات:

اشتهر الشيخ بكثرة القيام وملازمته حتى أصبح الناس يجدون أثر هذا القيام على وجهه أما هو فقد "...كان ممن باع نفسه من ربه بتقاه، وافنى ذاته في محبته فرفعه ورقاه، واستسقى منه أمطار المواهب فسقاه، جمع له بين العلم والعمل، وأكمل له بما خصه من ولايته القصد والأمل..."[21] وكان يعتبر كثرة النوم من النواقص التي ينبغي الترفع عنها فيقول في التنبيه: **ما زي برقاد** وفي تبصرة السائل: **أهل الرقاد مثل الربيع اليابس**[22] أي كالكلأ شتان بين يابسه وأخضره.

ومن أراجيزه في التنبيه يصف شوقه للحج وحب معاودته كل عام دون القدرة على ذلك قوله:

إذا نفتكر مكة وأيضا ابيار علي وتقوم نار في قلبي يا فتى وتشغل

أروم كل عام نزور وقلبي أيضا ما مل بالهم يا فتى وهو أيضا شغل

وقال:

سلم لي على النبي يا ماشي إلى الحجرا كل سنة نقول نمشي لكن ما لي قدرا[23]

كما كان رحمه الله محبا لذكر الله يعتبر شعار للمؤمنين ومجيرا لهم من الكروب وطريقهم إلى الله وكان الذكر يذهب بلبّه ويدعوه إلى التفكر في المخلوقات وأحوالها لذلك رغب في الاجتماع على الذكر بقوله في التبيان:

إذا سمعت الفقرا حين يذكروا يمش عقلي يجول في الأحوال ويقول أين ذا الشي[24]

الجود والكرم والإيثار:

الجود والكرم من خصال التصوف الأساسية لذلك فإن الشيخ كان كثير الكرم والإيثار معروفا بكرم النفس والسخاء فقد كان كما يروي ابن سحنون الراشدي " ... صواما قواما، جوادا كريما..."[25]

وكان كثير الولائم لا يكاد يفارقها وكلما أسعده أمر من أمور دينه أو دنياه أولم له وجمع له جمعا من الفقراء فأكرمهم باللحم أو الفاكهة وفي ذلك يقول في التبيان:

ولا بد للسماط للجالس ومن يمشي[26]

وذكر ابن صعد أنه كان متمسكا بصفة الفقر برغم كثرة ما يرد عليه من الهدايا والأعطيات "... يهوي بها المسافرون من جميع الأقطار والبلاد البعيدة... فكان رحمه الله يتصدق بكل ما يرد عليه وينفقه على الفقراء إيثارا لصفة الفقر، وطمعا أن يفوز غدا بثواب السبقية إلى دار الفنا"[27]

حب آل البيت وتعظيم الشرفاء:

كان الشيخ شديد الاعتناء بآل البيت مبالغا في إظهار الاحترام لهم يرفض التقدم على كان منتسبا لهم مظهرا لمن حضر من العامة فضلهم مكرما نزلهم إن هم نزلوا بوهران فإن هم غادروهم اجتهد في تزويدهم بما استطاع من مال وكساء وغيره حتى كثر المتطفلون من مدعي الشرف ببابه طمعا في كرمه، فلم تمنعه كثرتهم ولا تشكيك أصحابه فيهم من الانقطاع عن عادته مصرحا لهم أنه يعاملهم حسب النيات وأن الأجر بالغ إن شاء الله صدق من صدق وكذب من كذب.

وقد قال في تعظيمهم وذكر حقوقهم في تبصر السائل ما يلي:

من هو فصيح عربي من آل فاطمة ونقدموا على من سبقلو التقدما

من هو شريف هو سيدي ونعظما مطلب كبير عندي من جهلو عما[28]

وقد ذكر ذلك ابن سحنون في وصفه لخصال الشيخ الهواري واعتبره من الحفاظ على حدود الشريعة فقال: " ... محبا لآل البيت النبوي، رافعا لمقدارهم، محافظا على حدود الشريعة..."[29]

وقد عده المزاري من الأشراف مستندا إلى ما جاء في كتاب " جواهر الأسرار في معرفة آل النبي المختار" وإلى ما رواه أبو عبد الله محمد الفاسي في مؤلفه " إتمد الأبصار في آل النبي المختار[30]، وكذلك فعل الزياني بقوله: " ...المقطوع بولايته باتفاق، الشريف الحسني بغير شقاق ..."[31]

الخاتمة:

ليست هذه كل خصال الشيخ الهواري فالرجل أكبر من أن تصفه أو تجمل أخلاقه هذه الورقات لكن هذه شذرات استقيت مما حفظه لنا ابن صعد من منظومات الشيخ الهواري التي لم تصلنا كلها مع الأسف الشديد وإلا لكانت مصدرا مهما في معرفة المزيد حول هذا العلم الذي اقترن اسمه باسم هذه المدينة وجاوزت شهرته حدودها إلى الآفاق من غير أن ينال حقه من التآليف .فإذا استثنينا ماكتبه ابن صعد أو ابن مريم الذي رصد الروايات حول الكرامات المنسوبة إلى الشيخ فإن بقية من كتبوا حوله لم تتجاوز كتاباتهم أسطرا معدودة وتكاد تكون كلها نقولات حرفية عن بعضهم البعض.

الهوامش

1 -محمد بن يوسف الزيّاني، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تح: المهدي البوعبدلي، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013، ص 56.

2 -يحي بوعزيز، مدينة وهران عبر التاريخ، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2002، ص ص 204-207.

3- محمد ابن صعد الأنصاري التلمساني، روضة النسرين في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين، مر وتح: يحي بوعزيز، الوكالة الوطنية للنشر والإشهار ANEP،الجزائر، 2002، ص .66

4- أحمد بابا بن أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد التكروري التنبكتي (ت: 1036هـ)، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، عناية وتقديم: الدكتور عبد الحميد عبد الله الهرامة، دار الكاتب، طرابلس – ليبيا، ط2، 2000 م، ج1، ص 516.

5-ابن صعد مصدر سابق، ص 50.

6-ابن صعد مصدر سابق، ص 52.

7 -أحمد بابا التنبكتي، مصدر سابق، ج1، ص 516.

8 -ابن صعد، مصدر سابق، ص 53.

9-أحمد بن محمد بن علي بن سحنون الراشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تح: المهدي البوعبدلي، مطبعة البعث، قسنطينة-الجزائر، 1973، ص 443.

10 -ابن صعد، مصدر سابق، ص 58.

11 -ابن سحنون الراشدي، ص 443.

12 -ابن صعد، مصدر سابق، ص 62.

13 -ابن صعد، مصدر سابق، ص 68.

14- أحمد بابا التنبكتي، مصدر سابق، ج1، ص 516. وانظر كذلك: يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ج 2، ص 213.

15 -أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد الملقب بابن مريم التلمساني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، مراجعة: محمد بن أبي شنب، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1906، ص 229.

16 -ابن صعد، مصدر سابق، ص 70.

17 -الصواب الحافظ العراقي كما ذكره الزياني في دليل الحيران والظاهر أن الخطأ من ناسخ المخطوط أو المحقق، أنظر: الزيّاني، مصدر سابق، ص 57. وقد أورد ابن مريم في البستان أنه القرافي ولسي العراقي، أنظر: ابن مريم، مصدر سابق، ص 228.

18-ابن عودة المزاري، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر واسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، تح: يحي بوعزيز، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1990، ج1، ص69.

19- ابن صعد، مصدر سابق، ص71.

20 -نفس المصدر، ص93.

21 -ابن سحنون الراشدي، ص 443.

22 -ابن صعد، مصدر سابق، ص 73.

23 -نفسه، ص79.

24 -نفس المصدر، ص89.

25 -ابن سحنون الراشدي، مصدر سابق، ص443.

26 -ابن صعد، مصدر سابق، ص 104.

27 -نفسه، ص105.

28 -ابن صعد، مصدر سابق، ص 107.

29-ابن سحنون الراشدي، مصدر سابق، ص 443.

30 -المزاري، مصدر سابق، ج1، ص69.

31 -الزياني، مصدر سابق، ص 56.